

الحياة الأدبية في السودان

بين ماضيها وحاضرها

للأديب سعد الدين .أ. فوزي

الفرزعين السادس والثالث عشر الميلاديين إلى تلك الربوع ، وهناك امتزج بالسكان الأصليين وتزوج معهم وتناسل ، على أشهر الروايات ، وأسس صرح مملكة عظيمة تسمى بالسلطنة الزرقاء أو مملكة الفونج ، امتدت شهرتها حتى وصلت إلى القسطنطينية واتسعت حدودها حتى البحر الأحمر وأطراف الحبشة وحدود دارفور

وقد اشتهر ملوك سنار بما جُبلوا عليه من الشيم العربية ، من الكرم والشهامة وحُب الثناء ، فكان الشعراء يقدون عليهم من مصر ومن سائر البلاد العربية ، فينظمون فيهم عقود الثناء ، وينضدون فيهم قلائد المدح ؛ ولكن الطابع الأصيل للنهضة الأدبية في رعاية ملوك سنار كان دينياً بحثاً ، فكان للعلوم الفقهية المقام الأول ، في الدراسة والتحصيل ، وفي البحث والتفتيش . ولم تقتصر مهمة ملوك الفونج على رعاية العلماء في داخل حدودهم ، بل كانت لهم صلات وثيقة بأفاضل العلماء في مصر ،

لا أريد أن أطوى القرون القهقري ، لأنكلم عن النهضة الأدبية في السودان القديم الذي عاصر الفراعين في مصر ، والبابليين والآشوريين في العراق . ولا أريد كذلك أن أقتصر على النهضة الأدبية الناشئة الآن ، ولكني أحب أن أقدم عرضاً موجزاً للحياة الأدبية في السودان العربي

عند ما انتصر المباسميون تفرق الأمويون في بلاد الله ، فنزل فريق منهم الأندلس وأسس بها مملكته الشام ، وجاء فريق إلى جنوب السودان وهبط سنار بين النيلين الأزرق والأبيض ، حيث وجد موجات عربية أخرى قد سبقته ما بين

١ - أساء إلى الحكومة في تعطيله قانون الفرقة بإدخاله

اللهجة العامية وجعلها تطغى على اللغة الفصحى

٢ - أساء إلى الحكومة في إنفاق خمسة عشر ألفاً من

الجنيحات من أموال الدولة على « تسكية » ممثلين نفخوا ذرائعهم

ولم يحسنوا إلى الأمة ، وكان في وسعهم نفعها لو توفر لهم مدير

فني يعمل للفن بدافع من الفيرة على الفن والاعتزاز بأمنته

٣ - أساء إلى الحكومة التي وكلت شئون التمثيل إلى

جماعة نوهت فيهم المقدرة دون أن تقيم رقباء عليهم ، فجعلوا

الفرقة مطية للأهواء والشهوات

٤ - أساء إلى النهضة الأدبية وإلى سمعة مصر في البلاد العربية

٥ - أساء إلى نفسه وقد عرضها للوقوف أمام لجنة التحقيق

— على حد ما ذكرت الصحف — عما نسب إليه من أمور

لا شأن لي بذكرها

وإنه لمن المدهش حقاً أن تقف لجنة القراءة — وأعضاؤها

من ذكرت — هذا الموقف المين الذين من مدير الفرقة

الفني ، وهي تعلم أن مآلها مرتبط بسقطاته الفنية وغير الفنية ،

وقد يزول العجب متى أمطنا اللثام عن بعض أسباب ذلك الموقف

وموعداً قريب

محيي الزمزموي

لا ألوم تلك المثلة المسكينة ، وأعتذر إليها من وصفي موقفها ذاك ، إنما ألوم الذي أثقل كاهلها بحمل لا تطيقه طبيعتها بزعم خاطي وتقدير معكوس في أنه يرفعها إلى مصاف كبار الممثلات ، وإذا به يدفعها إلى الهاوية التي لا تستأهلها

لا يعني كلامي أن هذه المثلة لا تتقن فن التمثيل ، فقد تصلح ولا ريب لأدوار أخرى ، إنما أعني أن المدير الفني أساء الاختيار

كمادته في التحكم بالممثلين والتسيطر على الممثلات

بودى لو أقف طويلاً حيال كل رواية أخرجها الأستاذ

طلحات لأقارنها بروايات أخرجها الأستاذ فتوح نشاطي ، وبذلك

يتبين له البون الشاسع والفرق الظاهر بين المجتهد الدؤوب ، وبين

القاعد المتقاعس

وسأفعل ذلك إذا توفر لي الوقت ، وسأتكلم عن المواقف

الفنية وعن فعال المنصر النسائي في الفرقة ، وسأخصص درساً

لروايتي « قطر الندى » و « شارع البهلوان »

والآن أسأل : ماذا أفاد الأستاذ زكي طلحات الفرقة المصرية

للتمثيل ، وبما ذا أساء إليها بكونه مديرها الفني ؟

لقد أفاد الفن كثيراً ، وسأذكر هذه الفوائد بالتفصيل في

الحين المناسب ، ولكن هذه الفوائد على كثرتها أقل كثيراً

من إساءاته ، ولا أحصى منها إلا ما يأتي :

من رجال العلم والدين في ذلك العهد في مختلف أنحاء السودان
لا داعي لاستعراضهم جميعاً

أما السكفابة الفنية الخالصة والشعر الوجداني المشهور
فما كانا عرضاً من أغراض الكتاب في دولة الفونج ، إذا
استثنينا الشعر الشعبي الذي لا يتقيد بالفصحى ، والذي يُعرف
عندنا « بالدويت » وإنما كانت الكتابة وسيلة للضحك ، أو ردّاً
على رسالة أو تهديداً لحصم ، وكان عمادها الجملة القرآنية ،
والإقتباس من الأحاديث النبوية ، مع التزام السجع ، وتقطيع
الكلام إلى فقر قصيرة . وإليك مثلاً الرسالة التي رد بها
السلطان محمد عدلان على اسماعيل بن محمد على قائد الجيش المصري
الفاتح عند ما طلب منه التسليم . قال :

« لا يفرنك انتصارك على الجمعيلين والشايقية ، فنحن الملوك
وهم الرعية ، أما بلغك أن سنار محروسة بحجة ، بصوارم قواطع
هندية ، وجنود جرد أدهمية ، ورجال صابرين على القتال مكررة
وعشية ؟ »

وكانت الحياة الأدبية في مملكة دارفور المعاصرة لمملكة سنار
الآنفة الذكر ، والواقعة في غرب السودان مماثلة لما تقدم وصفه :
حركة دينية عمادها القرآن والحديث والمذاهب ، وأشمار
مصطنعة في مدح الملوك والسلاطين ، والفخر والحاسة ، وتعليم
أساسه الدين يبذل في الساجد وبيوت القرآن

ثم دالت مملكتنا سنار ودارفور العريبتان ، واستتب الحكم
المصري في السودان سنة ١٨٩١ ميلادية ، فاستمرت شملة
الاسلام متقدة وكثرت الطرق الصوفية في طول البلاد وعرضها
وصار لأربابها من النفوذ ما بدأت نفوذ السلطة ، وانتشر علماء
السودان الواردون من الأزهر في أنحاء البلاد ، وازدهر
الطلاب على أبواب كبارهم كالشيخ القرشي والشيخ محمد الشريف
من زعماء الطريقة الشافعية الكبار

وقد نشر المصريون في السودان عدداً من المدارس الأولية ،
وأنشأوا مدرسة وسطى بالخرطوم بنظارة الشيخ رفاعة بك
الطهطاوي ، وشمل خديوي مصر الحاجد برعيتهم فأجروا أجور
الأئمة ، وقاموا بأصلاح الكثير منها ، ولكن مما يؤسف له
أن الشطر الأكبر من هذه الجهود ما زال مغلوباً عن الجمهور

ورجالات الأزهر المعمور . ومن أشهر هؤلاء الملوك الملك
بادي أبو ذقن ؛ كان يرسل الهدايا والهبات إلى رجال العلم في
الوادي الشمالي حتى مدحه الكثيرون بقصائد رنانة — أورد
منها شقير بك في كتابه « تاريخ السودان » أبياناً للشيخ عمر
المغربي قال فيها :

أيا راكباً يسرى على متن ضامر

إلى صاحب العلياء والجود والبر
وينهض من مصر وشاطئ نيلها

وأزهرها المعمور بالعلم والذكر
لك الخير إن وافيت سنار قف بها

وقوف محب وانتهر قرصة الدهر
إلى حضرة السلطان والملك الذي

حجى بيضة الإسلام بالبيض والسمر
هو الملك المنصور بادي الذي له

مدائح قد جلت عن العد والحصر
سليل ملوك الفونج والسادة الآلى

علا مجدهم فوق السماكين والنسر

وظلت هذه الصلات وثيقة العرى حميدة الأثر حتى ضممت

دولة الفونج وسار الأمر فيها إلى مواليها من « الهمج » . وكان
القرآن هو الدعامة الكبرى للتعليم في ذلك الوقت ، تخصص على

درسه وتدرسه فقهاء أجلاء من علماء الأزهر وعلماء السودان
ومن أشهر هؤلاء في ذلك العهد ، الشيخ ادريس بن محمد

الأرباب ، اشتهر بالفضل والتقوى ، حتى لقب بسيد الأولياء ،
وكانت له ولأحفاده من المكانة عند ملوك سنار ما جعلهم ملجأ

المستغيث ومأمن الخائف . واشتهر بعده الشيخ حسن بن حسونة
الذي جاء أبوه من الأندلس ، فسكن « كركوج » على النيل

الأزرق ، واشتهر بالصلاح والتقوى . وفي هذا العهد أيضاً رحَّب
السودان بعلماء كثيرين وردوا ساحتهم من سائر البلاد العربية ،

كالشيخ تاج الدين البهاري الذي جاء من بغداد ، والشيخ
إبراهيم بن جابر البولادي من مصر ، والشيخ محمد المركي من

مصر أيضاً . وفي المخطوط التاريخي الذي يعرف عند مؤرخي
السودان « بطبقات ولد ضيف الله » ذكر الكتاب نيفاً وتسعين

وكان المهدي شعراء أفذاذ ، نذكر منهم الشيخ عمر البناء ،
فقد كان شاعراً بليغاً قوى الדיباجة ، رصين المعاني ، له قصائد
مشهورة أذيعها

الحرب صبر واللقاء ثبات والموت في شأن الاله حياة
ولولا ضيق المقام لأوردنا الشيء الكثير غيرها . والشعر
في ذلك الحين كان يقوم مقام الخطابة عند العرب ؛ مدح المهدي
وتشجيع لأنصاره وحمله على أعدائه — ومن ثم كانت دائرته
محدودة ، ونظرته ضيقة

ثم انقضت المهدي وجاءت الحكومة الحاضرة ، وانصل
أدباء السودان وشعراؤه بالعالم العربي الحديث فنشأت مدرستان
في الأدب : قداماء ومحدثون

أما المدرسة الأولى فهلت من مناهل الأدب العربي القديم ،
ورشفت على وجه خاص من موارد العباسيين ، وعاصرت
شوقي وحافظ عند المصريين

وأما المدرسة الثانية فتأثرت بالأدب المصري الحديث أول
ماتأثرت ثم تشربت روح الآداب الغربية ، واهتمت لشعراء
وأدباء المهجر

وفي طليعة الأوائل الشيخ عبد الله عمر البناء والأساتذة أحمد
محمد صالح ، وصالح عبد القادر

وفي طليعة الأواخر : للتيجاني يوسف بشير ومحمد عثمان
محجوب والرضي محمد خير ويوسف التني

أما النثر فقد تظامن مقتنئ أدباء السودان ، ولا داعي للأفاضة
فيه ، فهو لا يتميز عن النثر الحديث في العالم العربي ، وإنما يجري
في ركابه مع الاختلافات اليسيرة التي تميز أسلوب كاتب عن
كاتب وشاعر عن شاعر

وقد اعتاد أدباء السودان ومعمراؤه أن يقيموا مهرجاناً أدبياً
كل عام يعرضون فيه ثمرات أفكارهم وروائع أشعارهم . وقد
أقيم هذا المهرجان في ثاني يوم عيد الأضحي

وإذا ما قدر لإنتاج السودانيين في القريب بإذن الله ، أن
يجد طريقة إلى المطبعة فسيري القراء الكرام مدى ما وصلنا
اليه في عالم الفكر والأدب ، ويحكمون بأنفسهم على ذلك الانتاج

سعد المبركة . أ . قورن

بخت الرمتا — السودان

في الوثائق الرسمية ، ولم يصل بعد إلى آذان الجمهور في مصر
والسودان . بيد أن سوق الأدب كسدت في أواخر الحكم المصري
لاضطراب الحالة السياسية وضعف الإداريين واستبداد الجبابة .
وكان النثر على نوعين في هذه الفترة : لغة الدواوين التي تكتب
بها التقارير وتصدر الأوامر وكانت مهلهلة لا ترمى إلى غير
الأداء . ولغة العلماء والفقهاء التي ظلت تحتذى أسلوب القرآن
وتسرف في تضمين آياته وأحاديث الرسول ، ومن أشهر علماء
هذه الفترة الفقيه السنوسي بقاى ، والفقيه محمد الحاج الطيب
إمام جامع الخرطوم في ذلك الحين ، والفقيه محمد علي ولد العباس ،
والشيخ الطريفي بن الشيخ يوسف ، والشيخ حسن ولد بان
النقاب وكثيرون غيرهم .

وعند ما انتهى الحكم المصري على يدى الثورة المهدي
ازدادت شدة الدين توجهاً ، وامتزجت السلطة المدنية بالسلطة
الدينية عاماً . وكان المهدي رجلاً متفهماً في الدين متمسكاً
بالكتاب والسنة ، وكان على ذلك بليغاً سيال العبارة سلس
الأسلوب ، وقد عمل مخلصاً على نشر الدين وبث العلوم القرآنية .
وكان إذا ما صلى صلت الأمة كلها وراءه ، وكان إذا ما جاهد
اندفع الجميع تحت لوائه . ولعل في النبه الآتية من خطبه
ومنشوراته ما يوضح ما نحن بصدده من تحليل النثر في ذلك العهد
قال المهدي في رسالة له : « قد اجتمع السلف والخلف في
تفويض العلم لله ، فعلمه سبحانه وتعالى لا يتقيد بضبط القوانين
ولا بعلوم المتفنيين ، بل يحجو الله ما يشاء ويثبت ما يشاء وعنده
أم الكتاب . قال تعالى : « لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما
شاء » و « عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو » و « لا يسأل عما
يفعل » و « يخلق ما يشاء ويختار » . وإليكم نص البيعة التي بايعه
عليها أنصاره الكرام « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الوالى
الكريم ، والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله مع التسليم ، أما بعد
فقد بايعنا الله ورسوله ، وبايعناك على توحيد الله ، وألا نشرك
به أحداً ، ولا نسرق ولا نزنى ، ولا نأتى بهتان ، ولا نمصيك
في معروف ، وبايعناك على زهد الدنيا وتركها ، والرضى بما عند الله
رغبة فيما عند الله والدار الآخرة وعلى ألا نفر من الجهاد »